كنت جالسًا على مكتبي الخشبي العتيق، كالعادة. أحدّق في الفراغ أمامي، محاولًا استجماع شتات أفكاري. محاولة يائسة أخرى. الكلمات تتراقص أمامي كأشباح هاربة، لا أستطيع الإمساك بأيٍّ منها. مجرد ضباب أبيض كثيف، يخنق أي محاولة للإبداع. ما الفائدة؟

أفكر بكل شيء حدث في حياتي. بكل لحظة فرح عابرة، وكل خيبة أمل تركت ندبة عميقة في روحي. ندوب فوق ندوب، خريطة كاملة للفشل. أفكر بحياتي معكِ. بالوعود التي قطعناها، والأحلام التي بنيناها سويًا، ثم... ثم انهيار كل شيء. كقصرٍ من رمال، ابتلعته أمواج الواقع المرير. أتساءل: هل كان كل ذلك وهمًا؟ هل كنت أحلم؟ ربما كان الأفضل لو بقيت نائمًا.

لكن فجأة... قاطع تفكيري المتشائم ذلك الشعور الغريب. شعور بحضور ظلكِ. شعورٌ دافئ، وكأن ظلكِ يلتف حولي، يعانق خيبتي المتضخمة، ويحاول - عبثًا - أن يواسيها. يا للسخرية! حتى ظلكِ يشارك في هذه المهزلة. يشارك في تمثيلية "الحياة السعيدة" التي فشلتُ في إخراجها. مسرحية هزلية، بطلها مهرج حزين.

التفتُّ إلى الخلف، ببطء شديد، وبأملٍ واهٍ، كمن يتشبث بقشةٍ في عرض البحر. أملٌ أخير، خافت، برجفة رؤيتكِ. حركة بطيئة، مملة، مكررة. أعرف النتيجة مسبقًا، لكنني أكررها. ربما تكونين هناك، واقفة في مكانك المعتاد، بابتسامتكِ التي اعتدتُ عليها... ابتسامة أصبحت ذكرى باهتة أخرى. ربما... ربما سأفتح عينيّ على لا شيء، كالعادة. مجرد فراغ آخر، يضاف إلى قائمة الفراغات التي تملأ حياتي.

أعود بنظري إلى المكتب، ببطءٍ أشد. الجاذبية تبدو أقوى الآن، تسحبني إلى الأسفل، نحو هاوية اليأس. أستسلم لها. أترك رأسي يسقط على سطح المكتب الخشبي البارد. أشم رائحة الخشب العتيق، رائحة الزمن الغابر، رائحة الذكريات المتحللة. رائحة تشبه رائحة قبري. أغمض عينيّ بقوة، أحاول أن أحبس الدموع، لكنها تتسرب رغماً عني. قطرات مالحة، تحرق وجنتيّ، وتتساقط على الخشب، تاركة بقعًا داكنة صغيرة... كبقع الدموع على رسالة وداع لم أكتبها أبدًا.

أرفع يدي ببطء، وأمررها على سطح المكتب. الخشب أملس تحت أصابعي، بارد، وصلب. لا حياة فيه. أضغط بأصابعي أكثر، كأنني أحاول أن أستمد منه بعض القوة، بعض الصلابة... أي شيء. لكن لا شيء يحدث. مجرد خشب. مجرد جماد.

أفتح عينيّ مجددًا، وأحدق في البقع الداكنة التي خلفتها دموعي. تتوسع ببطء، ثم تبهت تدريجيًا، حتى تختفي... تمامًا كما اختفت هي. تمامًا كما اختفى كل شيء جميل في حياتي. أتساءل، هل ستترك ندوبي الأثر نفسه على هذا العالم؟ هل سيتذكرني أحد؟ هل سأكون مجرد ذكرى باهتة، تتلاشى مع مرور الوقت؟

أهز رأسي ببطء، نافيًا الفكرة. لا فائدة. لا فائدة من التفكير. لا فائدة من التذكر. لا فائدة من أي شيء. أترك رأسي يستقر على الخشب، وأغمض عينيّ، مستسلمًا للظلام... للعدم... للراحة الأبدية... أو هذا ما أتمناه.

لكن فجأة... انتشلني صدى صوتكِ، كنغمةٍ حزينةٍ على وترٍ مقطوع، قائلًا: "عزيزي... لمَ توقفت؟ ألا تريد أن أقرأ روايتك؟"

فتحتُ عينيّ، كغريقٍ يتشبث بآخر أنفاسه، وتلفتُّ حولي بلهفةٍ يائسة، كمن يبحث عن سرابٍ في صحراء اليأس. "بلى... بلى... أين أنتِ؟" قلتُ بحرقةٍ، بصوتٍ مخنوقٍ بالكاد يُسمع، كصرخةٍ مكتومةٍ في قاع بئرٍ عميق. ثم أضفتُ، والكلمات تتساقط من فمي كحجارةٍ متهاوية: "أقسم أنني سأكتب لكِ مرةً وثانيةً وثالثة... لكن أين أنتِ؟"

لكن... لا شيء. صمتٌ مطبقٌ كثيف، يزن أطنانًا، يسحقني ببطءٍ مؤلم. هل كنتُ أتوهم؟ هل كان ذلك مجرد صدىً لخيالٍ مريض، يرفض أن يتقبل الحقيقة؟ هل هي لعبةٌ أخرى من ألاعيب عقلي المنهك، محاولةٌ يائسةٌ لتعذيب نفسه؟

ارتعشت يدي، وهي تلامس سطح المكتب الخشبي البارد، وكأنني أبحث عن دليل ملموس، عن أيّ أثر لوجودكِ. لمسة، رائحة، أي شيء. لكن الخشب ظل صامتًا، باردًا، لا يشي بأي سر. مجرد خشب... والعدم.

رفعتُ رأسي ببطء، وثقّلت حركتي، كأنني أحمل جبالًا على كتفيّ. حدّقتُ في الغرفة الفارغة، في الأركان المظلمة التي كانت يومًا ما تعج بالحياة، بالضحكات، بالوعود... الآن، لا شيء سوى غبار السنين، يرقص في شعاع الشمس الخافت المتسلل عبر النافذة. رقصة الموت البطيء.

"روايتي؟" همستُ لنفسي، بسخريةٍ مريرة. الكلمة نفسها بدت غريبةً، ثقيلةً على لساني، كحجرٍ لاذع. أيّ رواية؟ هل أكتب قصة فشلي؟ مذكرات حطامي؟ مرثيةً لحبٍّ مات قبل أن يولد؟

تسلل إلى أنفي عبيرٌ خافت، مألوف، كذكرى بعيدة... عطركِ. الرائحة التي كانت تملأ هذا المكان، والتي التصقت بكلّ زاويةٍ فيه. الآن، هي مجرد وهمٍ آخر، شبحٌ عطريّ يرقص أمامي، يسخر من عجزي، من عدم قدرتي على استعادة أي شيء.

أغلقتُ عينيّ بقوة، محاولًا أن أحبس تلك الرائحة الوهمية، أن أستحضر صورتكِ، صوتكِ، لمستكِ... لكن كلّ ما ظهر أمامي هو الفراغ. فراغٌ أسود، يبتلع كلّ شيء، يلتهم الذكريات، الأحلام، الآمال... يلتهم حتى الألم.

"لا فائدة..." تمتمتُ، والكلمات خرجت من فمي كزفرةٍ يائسة. استسلمتُ للجاذبية، تركتُ رأسي يهوي مرةً أخرى على سطح المكتب، مستسلمًا للظلام. للعدم. للراحة... الوهمية. ربما، في هذا العدم، أجدكِ... أو ربما، أجد لا شيء على الإطلاق. وفي كلتا الحالتين... لا فرق.

الخشب البارد امتص حرارة جبيني المتصبب عرقًا، وكأنه يسحب معه آخر بقايا الحياة مني. لا فرق. تكررت الكلمة في ذهني كصدى أجوف في بئر مهجورة. لا فرق بين الحرارة والبرودة، بين الوجود والعدم، بين صوت ضحكتها وصرخة يأسي. كل شيء يتساوى في النهاية، محصلة صفرية لوجود عبثي. يذوب في بوتقة النسيان الكونية، تلك الرحمة القاسية. النسيان... تلك النعمة التي أتوق إليها بلهفة الغريق للقشة، وذلك العذاب الذي أخشاه أكثر من الموت نفسه. أن أنسى يعني أن أُمحوها هي من خريطة

ذاكرتي المتآكلة، أن تمحى ابتسامتها، همساتها، رائحة عطرها التي لا تزال عالقة في ثنايا هذا المكتب اللعين... أن تمحى كما مُحيت من حياتي، وذلك هو الجحيم بعينه، جحيم الفراغ المطلق.
أغمضت عينيّ بقوة أكبر، كمن يحاول أن يصد طوفانًا بجفنيه. أحاول أن أطرد تلك الأفكار اللعينة، تلك الذكريات المسمومة التي تتغذى على بؤسي. لكنها تتشبث بذهني كالعلق، كمخالب غائرة في لحم حي، تمتص ما تبقى من قوة إرادتي المهترئة. تتراقص أمامي صور مشوشة، ضبابية، ذكريات مجزأة، مبتورة، كقطع زجاج مكسور تعكس شظايا ألمي المتناثر. أراها تضحك، ضحكة كانت كأجراس فضية، أسمع صدى صوتها، نغمة حانية كانت تذيب جليد روحي، أشعر بلمسة يدها، لمسة دافئة كانت تبث الحياة في أوصالي... ثم يتبدد كل شيء فجأة، كفقاعة صابون لامعة، يختفي في الهواء، تاركًا وراءه فراغًا أعمق وأكثر إيلامًا، هاوية سحيقة تبتلعني ببطء.
أحاول أن أستجمع شتات نفسي، أن أركز على شيء ملموس، على صلابة الخشب تحت جبهتي، على برودته التي تخدر ألمي مؤقتًا. لكن حتى هذا الإحساس يتلاشى، يذوب في بحر العدم الذي يغمرني. أتساءل: هل هذا هو الجنون؟ هل هذا هو ما يشعر به من يفقد عقله؟ أن يغرق في بحر من اللا شيء، أن يتلاشى تدريجيًا، أن يصبح مجرد ظلٍ باهتٍ لذاته السابقة؟
أتخيل نفسي كهذا المكتب الخشبي العتيق، صلبًا، جامدًا، بلا حياة. مجرد قطعة أثاث مهملة، تنتظر أن تتحلل ببطء، أن تتآكل بفعل الزمن، أن تعود إلى التراب الذي أتت منه. ربما هذا هو مصيري المحتوم. أن أتحلل ببطء، أن أتلاشى في غياهب النسيان، أن أصبح مجرد ذكرى باهتة في ذاكرة شخص ما... أو ربما، لا أحد.
استيقظت... أو ربما لم أستيقظ حقًا. هل يُعتبر هذا استيقاظًا؟ مجرد فتح جفنين ثقيلين على عالمٍ باهت، خالٍ من الألوان، خالٍ من المعنى. صباحٌ آخر... أو ربما مساء. لا أعلم. بعد رحيلكِ، توقفتُ عن عدّ الأيام. ما الفائدة؟ كلّ يومٍ هو نسخةٌ كربونيةٌ شاحبةٌ من سابقه. مجرد تكرارٍ مملٍّ لطقوس اليأس. أعدّ الأيام على أملٍ واهٍ، أملٍ ميتٍ بأن تعودي، وأن أحسبَ يوم رحيلكِ البارحة... كأنه لم يمضِ دهرٌ على تلك اللحظة المشؤومة. أعيش في "البارحة" الأبدية، أتشبثُ بها كطفلٍ يتيمٍ يتمسك بدميته المهترئة.
رفعتُ جسدي المثقل عن المكتب، كأنني أحمل جبالًا على كتفيّ. كلّ عظمةٍ في جسدي تئنُّ احتجاجًا. أشعرُ وكأنني عجوزٌ في التسعين، رغم أن عمري الحقيقي لا يتجاوز... لا يهم. الأرقام فقدت معناها. الزمن نفسه فقد معناه.
تجولتُ في الغرفة، بخطواتٍ متثاقلة، متعبة، كأنني أسير في مستنقعٍ لزجٍ من اليأس. الغرفة نفسها تبدو مختلفةً. أكثر اتساعًا... وأكثر فراغًا. كلّ زاويةٍ فيها تصرخُ بغيابكِ. حتى الهواء يبدو أثقل، يخنقني ببطء.
وصلتُ إلى النافذة، وحدّقتُ في الخارج. الشمس... أو ربما القمر. لا أستطيع التمييز. كلّ شيءٍ يبدو رماديًا، باهتًا، بلا حياة. تمامًا مثل روحي.
أتذكرُ الأيام التي كنا نقفُ فيها معًا أمام هذه النافذة نفسها، نشاهدُ شروق الشمس، أو غروبها... لا يهم. المهم أننا كنا معًا. كنا نتبادلُ الأحلام، الوعود... الأوهام.
أستندُ بجبيني على زجاج النافذة البارد. برودته لا تخترق طبقات اليأس السميكة التي تغلفني، مجرد وخزٍ خافتٍ في عالمٍ فقد إحساسه. الشمس... أو القمر... بقعةٌ ضبابيةٌ في سماءٍ رماديةٍ لا نهائية. أتساءل بسخريةٍ مريرة: هل هي شمسُ يومٍ جديد، أم قمرُ ليلةٍ أخرى؟ وهل يهم حقًا؟ كلّ شروقٍ هو مجرد تذكيرٍ مؤلمٍ بغيابكِ، وكلّ غروبٍ هو بدايةٌ لفصلٍ جديدٍ من عذابي الليليّ.
أتذكر... أتذكر تلك الأمسيات، عندما كنا نقف هنا، متجاورين، كتفين متلاصقين، وقلبين... أو هكذا كنت أتوهم. كنتُ أشيرُ إلى تشكيلات الغيوم الغريبة، وأختلقُ لها قصصًا خياليةً سخيفة، وأنتِ... كنتِ تضحكين. ضحكةٌ كانت كالموسيقى، كأجراسٍ فضيةٍ ترنُّ في روحي المقفرة. كنتِ تضعين رأسكِ على كتفي، وتهمسين: "أنت مجنونٌ... ولكني أحب جنونك."
الآن، أقف هنا وحيدًا، أحدق في سماءٍ فارغة، أتحدث إلى لا أحد. أختلق قصصًا لنفسي، أحاول أن أملأ الفراغ الصارخ الذي تركتِه. لكن الكلمات تتساقط مني كحجارةٍ ميتة، لا صدى لها، لا معنى لها. مجرد هذيان رجلٍ محطم.
أتذكرُ كيف كنا نخطط لمستقبلنا، نرسم أحلامًا ورديةً على لوحةِ هذا العالم القاسي. كنا نتحدث عن منزلٍ صغيرٍ بحديقةٍ واسعة، عن أطفالٍ يركضون ويلعبون... عن حياةٍ كاملةٍ معًا. الآن، أرى تلك الأحلام تتطاير كأوراق الخريف الجافة، تحملها رياح الواقع المرير إلى المجهول.
أرفع يدي، وأضعها على الزجاج، كأنني أحاول أن ألمس صورتكِ المنعكسة فيه... لكن لا أرى سوى صورتي الشاحبة، وجه رجلٍ ميتٍ يمشي على الأرض. عيونٌ غائرةٌ، تجاعيدٌ حفرتها الخيبة، شبحٌ لما كنت عليه ذات يوم.
أتذكرُ وعدكِ الأخير... "سأكون معكِ إلى الأبد." كلماتٌ جوفاء، تتردد في رأسي كصدىً ساخر. "إلى الأبد..." أتساءل: هل كان هذا هو "الأبد" الذي وعدتِني به؟ هذا الفراغ، هذا الألم، هذا العدم؟
أديرُ ظهري للنافذة، أعود إلى الغرفة... إلى قبري. كلّ خطوةٍ أخطوها هي بمثابة عذابٍ جديد. أشعرُ وكأنني أسير على جمرٍ مشتعل، كلّ خليةٍ في جسدي تصرخُ احتجاجًا.
أتوقفُ أمام المكتب، أحدق في الخشب العتيق، في البقع الداكنة التي خلفتها دموعي... دموعي التي لم تجفّ بعد. أتساءل: هل سأبكي إلى الأبد؟ هل سأقضي بقية حياتي في هذا الحداد الأبدي؟
وإن كان كذلك... وإن كانت دموعي هذه لن تجف أبدًا، فلماذا لا يشاركني العالم كله هذا الحداد؟ لماذا لا تتشح السماء بالسواد، وتذرف النجوم دموعًا ملتهبة؟ لماذا لا تتوقف الأرض عن الدوران، حدادًا على حبٍّ مفقود، على روحٍ محطمة؟ لماذا تستمر الحياة بكلّ هذه القسوة، بكلّ هذا اللامبالاة، بينما أنا أتآكل ببطء، أذوب في بحرٍ من اليأس المرير؟